قراءة غير محايدة في شعر "ممدوح عدوان" (٢)

غلاف ديوان « أمي .. تطارد قاتلها

الشاعر « ممدوح عدوان »

التجربة الذاتية للشاعر ممدوح عدوان ليست تجربة منعزلة عن المحيط الموضوعي والعام ، انها مفتوحة النوافذ على الهموم العامة للمواطن السوري ، ان ما تراه عيناه ، وتسمعه اذناه ، ويعيشه بحسه الوطني ووعيه التقدمي ينعكس جليا في قصائده ، جميع قصائده .

ولكن ديوانه الجديد ـ آخر ديوان شعري صدر له حتى الان ـ الذي ضم خمس قصائد طويلة ، يمثل الذروة التي وصل اليها شعر ممدوح عدوان في مبنى القصيدة ومعناها ، اعني في شكلها الفني ومضمونها الفكري ووحدتهما الجدلية .

« أمي .. تطارد قاتلها » هذا هو عنوان ديوان ممدوح الاخير .. للوهلة الاولى نظن انفسنا امام مرائي ذاتية تخص الشاعر وأمه والعلاقة الانسانية بينهما .. ولكن الامر في حقيقته التي تتكشف اثناء قراءة القصيدة بتمعن بسيط ، يتجاوز الشخصي الى العام .. يتجاوز ممدوح عدوان الى كل واحد فينا .. يتجاوز أم ممدوح عدوان ، الى امنا جميعا .. الى البلاد المقتولة .

جنازة الام ـ البلاد

جنازة الام ـ البلاد ، كانت موضوع القصيدة الاولى في الديوان . يقول ممدوح :

« سرقوا حلم صباها / تركوها في الضنى محتلة / ترزح من وطأة هذا الحيف / من عجز عن الافلة للذل / مشت شوطا طويلا في طريق الخبز / حق الان ان ترتاح / كان العمر حيفا / حملة من حطب الشوك / ولم نسمع النهدة في الليل / حفيف الدمع في باب مزار / نزفت اوجاعها للقلب حتى ابتلعت مر أساها / وتلوت دون ان تكشف عن جرح ستار / » .

ان هذه الام ، ليست اما عادية كباقي الامهات لقد قال الشاعر لنفسه :

« وامك ليست سوى وطن مستباح » .

وقد قال ايضا عن امه :

« امي هي الخبز والماء والريح والارض / امي هي الدمع والجرح والنهر والجمر / امي هي الضوء والنوء والبرد والورد / جددني الحزن / وهجني / فرجعت اعانق امي / كما اقتحم اليائس المقصلة / » .

الام اذن « مقصلة » كذلك ؟؟ .. اجل ، الام ـ البلاد ، حينما تكون في دائرة الاحتلال او الاغتصاب .. تزرع بالمقاصل والخوذات .. وعلينا تلمس حنان قلبها المنفطر الما بين القضبان وجنازير الآليات العسكرية .

ينقلنا الشاعر الى قرية « دير ماما » ، التي ساقها مرة الى الحرب ، فعادت وسلتها ملأى بالنجوم ـ الشهداء . دير ماما الان تستقبل جنازتها الجديدة ، جنازة أم الشاعر ـ والبلاد ـ والقرية الفقيرة :

« اقبلت دير ماما تهلل بالحزن فيض مظاهرة / فتغني الحجارة / والسنديانة قرب المزار / وجاء الينابيع / والطلقات / ويضحي الطريق الى القبر قوس رباب / ويضحي العويل عتابا / تبوح ابتسامتها / مثلما القصب المتوجع يدعو لدبكة عرس / هي الدبكة انعقدت في ظلال الجنازة / فابتدأ الرقص بالآس / وابتدأ الذبح بالصلوات / المعاول طبلت العرس / بالضربات التي حفرت قبرها / استيقظت دير ماما تئن عتابا / على ظهرها حدبة الجبل الصعب / امي كقريتنا / انكسرت من جبال الهموم » .

وتصبح الام كرمز للبلاد اكثر دلالة وأوضح ، في الحوار التالي بين الشاعر وأمه :

« ـ لماذا اشتكيت الى الله يا أم ؟

قالت : لمن سوف اشكو اذا ضاع صوتي في صخب المهزلة ؟ / ولمن سوف ارفع صوت ظلامتي المقبلة ؟ / انت تعرف : لا وقت للحب تحت المقاصل / لا وقت للصفح في عذر هذي الخناجر / لا خبز في حلم هذي الطفولة / كون تلأمن / فقر تذلل / شعب تزلزل / والدمع لا يوقف الزلزلة .

ـ ولماذا دواؤك مر ؟

لان حياتي أمر / تمرمرت حتى تمر البلية صامتة / وتجيء الخيانة عارية .

قلت : كيف وصلت الى الله يا أم ؟

قالت : تسللت عبر سواد الليالي / بصمت النسيم / (الشكاوى محرمة بالكلام) / طلبت الى الله موتي نظيفا / لان الحياة غدت مزبلة .

علتي ـ غير ما يشتكي العاشقون ـ / بغير دواء / وذلي يخادعني / انت تدري / بأني القتيلة بالكبرياء / القتيل يموت ، بني ، فيسكت / لكن يضج رياء / ويبكي وراء جنازته القتلة » .

البلاد التي تقمصت شخصية الام .. لم يردها ممدوح عدوان مثقفة يسراوية ، تتحدث بالفصحى عن نظريات ثورية جاهزة . لقد قدمها الشاعر من خلال شخصية شعبية .. ولهذا كانت القصيدة من حيث المضمون غير مرتبة ، فالام التي طلبت من الله موتا نظيفا ولبى دعوتها .. ثارت من المجتمع الرأسمالي الفاسد باللجوء الى الغيبيات السحرية .. ولكن كيف تحولت الام معجزة بعد ذلك :

« صرخت : تعالوا ، انظروا / تلك معجزة الام / يا للسماء كم الارض مزهرة / وكم الام مزهوة / انظروا / كيف جاءت تلوح في الزهر فواحة / اوقفوا الزغردات / اسمعوا : / ان امي تزغرد فينا دماء / هي الارض تحبل / والخصب يقبل / والاغنيات الابية تنهض / من رمم وئدت / ثم جاءت تحاسب / هذي قيامتها / المطر الان يشرب شمسا / هلموا ، استحموا عراة / تبارك هذا الصباح / فأمي تطل / وتبسم / قوس قزح » .

ان هذه الجوانب في شخصية القصيدة الرئيسية « الام » بتعددها وتناقضها احيانا ، تعود الى ان الشاعر ، حاول ان ينقل أمه من هم خاص الى هم عام ،

والاصح انه حاول أن يتحدث عن العام من خلال تناوله لموضوع خاص . ولا شك ان الامكانية كانت متوفرة والنجاح كان اكيدا .. وما يمكن اعتباره خروجا عن الموضوع من تفاصيل ذاتية خاصة بشخصية الام ، هي ـ التفاصيل ـ تشحن القصيدة بجو انساني ، اضافة الى انها تمنح القصيدة حرارة الحدث .

الام ... تطارد قاتلها

القصيدة الثانية ، موضوعها هو موضوع الاولى « الام » ـ « البلاد » . ولكن ينتقل الان بالام والبلاد من حالة الوعي والاحساس بالاضطهاد الى حالة التحريض والتحضير للثورة .. او « الثأر » كما جاء في القصيدة . يقول الشاعر في قصيدة « أمي تطارد قاتلها » .

« في فمي دم امي ضوء / يريني بدايتهم بالدموع / نهايتهم بالسكاكين / يقتسمون الوصية والارث / امي التي عجمتني تورثني تأرها / وجهها شاهد : / كل ما فيه يشهد / بدءا من الريح والرعد / حتى التراب / وفي كل صبح تضوع / وفي كل زهر تضيء / وبين الكلام المنمق والدم كانت تضيع / » .

ان الشاعر يتهم القيادات العربية ، بتفطبة قتل البلاد بالشعارات المنمقة :

« في رمال البداوة تختلط الابجدية / تضحي القيادة مثل القوادة / تتضح العلة العربية / فقرا وقفرا / هما الام / جنة نفط تموج مهللة في حفاء خطاها / وفي عُصبة البطن بعد طواها / وفي صحراء الخيانة تبدو السكاكين نخلا / يصوغ السراب من الغدر ظلا ونبعا / وأمي مفردة في الهجير » .

ولكن الام لا بد أن تثأر من قاتلها : « امي تطارد قاتلها / لا تنام / تسد عليه السبيل الى النوم / تخلع عهدا من الغدر / تخلع قلبا قسا حينما التجأت صوبه / ثم حول حاجتها صفقة / هو أمي تطارد قاتلها / وتعري مساتر عاهاته / تتسلل نحو كوابيسه / وتشد عليه محاريثها / هو ثأر المجاعة من شبع غافل / وانتقام الضحية من شفرات الخيانة / والفقر من كذبة الامن والشفقة / هو عين تجيء لتثأر من مخرز / هو دمعة امي التي اصبحت طلقه » .

الشاعر في هذه القصيدة يعيد الفكرة في صور مختلفة ومتتالية ، ولذلك نحاول القبض على الافكار الاساسية الاخرى في القصيدة وهي فكرتان :

١ ـ الشاعر يصل الى طريق النصر وتحرير البلاد :

« اني انازل خصمك في الكر والمكر / في الدم والسكر / مهما ابتعدنا فأنت معي » « يدي تستعد لقبضك الدموي / اصوغك قنبلة / وأصوغك ذاكرة / اتحلل فيك وأخفيك وسط دمي / نتحول كالارق المتغضن / نكمن بين الدموع وأهاتنا القلقة / يسأل المجهدون من الذئب : ما تبتغي ؟ / الارض ؟ / والارث ؟ / .

ما ابتغي .. جل ، لا يدعيه الكلام / فلو وضعو الشمس بين يدي / النجوم خواتم / لو الهوني : اقول لواحدهم : كن ، يكن / لا احيد » .

ولكن رغم هذا الامتشاق الواعي للسلاح ، ورغم هذا التصميم على عدم التراجع .. يحذر الشاعر من الغدر والخيانة فيقول :

« في فمي دم امي بليغ

واني احاذر ان يصبح الدم ماء » .

تل الزعتر

قصيدة ممدوح عدوان « هكذا تكلم التل » تبرز مدى ارتباط الشاعر بالقضية الفلسطينية باعتبارها قضية قومية مركزية ، تناوبها « الطغاة القومجيون وسلموها للتجارة ، علقتها في حوانيت الهزيمة » على حد تعبير الشاعر . في قصيدته عن تل الزعتر ، يستعرض الشاعر مراحل القضية الفلسطينية التي تعج بأساطير البطولات و « أساطير » الغدر والخيانة !! . كان مخيم تل الزعتر ارضا مهلهلة فجاء اليه الجوعى وتلئوه ، ولكنه استطاع أن يكشف السر :

« وحدي كشفت السر : ان البحر صحراء / رأيت رمالها تمتد تحت قناعه المائي / كان الموج يلهث كي يغطي ما تكشف من رمال الشط / كان الماء يخفي نتن اضرحة الذئاب / وكنت منضما الى وطن الدموع / رأيت ان البحر صحراء / وان الخطبة العصماء خرساء / رأيت منارة الاهل التي تدعو لمصيدة / رأيت دماءنا سرا تعلب / ثم تعرض في الحوانيت / اكتشفت دمي بكف كبرت قبل الصلاة / وصفقت قبل الخطاب / وشطرت تبجيلها للقاتلين / وصافحت نخاس امي / صافحتني / فاكتشفت دمي / ايكفي النيل والعاصي ودجلة والفرات غدا / لغسل دمائنا عن هذه الايدي ؟ ايكفي الدمع للتكفير ؟ / تكفي لافتات الحفل للتكفين ؟ » .

لقد حاولت القصيدة ان تحيط بكل تفاصيل تل الزعتر ، وان تلقي الضوء على الاداتيين الانعزالية والعربية ، اللتين ارتكبتا مجزرة تل الزعتر . في مقطع نثري من القصيدة جاء ما يلي :

« بحسن نية وبمحبة .. القى دب بحجر كبير على وجه صاحبه لكي يطرد عنه ذبابة ـ ويقول بعضهم ان الدب لم ير ذبابة على وجه صاحبه ، لكنه رأى وجه صاحبه جيدا » .

كما قال الشاعر على لسان التل : « لم ينفذ الى قتلي سوى اهلي » .

الشاعر « علي الجندي »

وعن القتال البطولي الذي خاضه ابطال تل الزعتر .. عن تلك اللحظات المجيدة رغم ما تثيره من حزن كبير قال الشاعر على لسان التل :

« جاؤوا الي وقاتلوا عني ، / لاني كنت تلا خافقا كالقلب / قلبا واسعا كالتل / كنت اواخر الاحلام / كنت مبشرا بالموت / اشهرت الصواعق والبروق / ورحت اضرب / والدموع ورحت اضرب / غير ان البرق ينبو / والصواعق في يدي تخبو / ويأتي الغدر / ان البندقية تستبد بكف بائعنا / وتطلق صوبنا مدنا واوسمة / فلم اسقط / وحضني واسع للاهل / باغتني الاخاء لكي ينال السبق / لم اسقط / مدافعة تثير امامي الصلح المروض او سلام القبر / تقصفني مساومة وارغفة / وتدعوني الى قفص ادجن فيه / لكن الامومة صمدتني / صحت بالابناء ان يتغلغلوا في القلب / اوردتي تضيق / فوسعوها خندقا / يتمترسون : الطفل خلف الطفل / خلف الحلم ، خلف الام / يندلع الدخان من البنادق زعترا / يتنهد البركان في صدري / وتصطدم العصافير الابية بالحرائق / ها هو الموت الذي زرعوه في كل الدروب صوى / ولكن الفلسطيني يأتي نحو موت كان يعرفه / يحادقه / فيسقط عنه اقنعة / ويكشف وجهه الاخوي / تنكشف الحكاية عن قتيل / مات لم يعرف غريمه » .

ولكن لا ينسى الشاعر أن يضيف :

« أقبل الشهداء صفا واحدا / وتطوعوا للدفن / لم اقبل / لاني لست مقبرة / والفتيان ما حلموا بقبر / بعدما خسروا بلادا » .

لقد اصر الشاعر على ان تكون القصيدة بضمير المتكلم « انا » ، وذلك تأكيدا لفصل الشعب الذي يمثل الشاعر ضميره الوطني ، عن النظام الذي لطخ يديه بدماء تل الزعتر . أن قصيدة « هكذا تكلم التل » التي كانت صفعة ألمت النقاد اليمينيين الذين حاولوا الدفاع عن «الدب»، كما ألمت الذين تواطأوا لاثذين بصمت القبور .. هذه القصيدة كانت من اسباب الحملة اليمينية المسمومة على الشاعر ممدوح عدوان .

حتى اخر الصعاليك

القصيدة الرابعة في الديوان « حتى آخر الصعاليك » ، موضوعها مختلف . فهي تتحدث عن الوضع السياسي والامني في البلاد ، عن الشعراء والادباء التقدميين الذين رفضوا التدجين ، وابوا الا أن يظلوا « صعاليك » المجتمع الرأسمالي:

« العيون المعرقة اكتشفت في الظلام فرائسها : / الصعاليك / منذ تلاقت مجاعتهم / وخلاعتهم / اخرجت من مخابئها الاسلحة .

على شجر الكلمات تسلق قناصة / وتحرك رتل من الجند / اعوانهم سيجوا طرف الغابة / انتشر الآخرون على الاسطحة » .

هكذا يصور ممدوح المعركة الدائرة بين الثقافة التقدمية والثقافة الرجعية في بلادنا . وعن انكشاف اوراق بعض من كانوا محسوبين على الصف التقدمي ، وعن تكالب اليمين الذي كان ينتظر هذه الفرصة من زمن بعيد قالت القصيدة :

« في غابة القنص / ينفر الكون واللون يختصم الضوء والنور / تسعى الطبائع تهجر اوكارها / وتدب وساوس : / تنسى الكلاب الوفاء / وتنسى البنادق اعراسها / والسماسرة البسمات / قلوب الصعاليك فاجأها الخوف ان الكلاب الستشاطت لرائحة الدم / التاجر المتلمظ يكلب حتى البنادق تستمرىء الهدف الساخن / الطلقات تفتش حاقدة غابة الكلمات » .

المصعلوك الاكبر

اخر قصيدة في هذا الديوان مهداة ايضا الى الشاعر « علي الجندي » ، وعنوان القصيدة « صوت يبلله الحزن » . وهذه القصيدة تتناول تقاطع الشاعرين وافتراقهما ، تقاطعهما في احتساء الخمر .. وتفارقهما في غير الخمر .

يقول الشاعر لعلي الجندي :

« ـ اتظن سندمن هذا السم ؟

(يقهقه)

اتظن لوا انا نلقى من يتحرك

نقبل هذا الذل ؟

اكنا نتردى لو ان الالم اقل ؟

لو ان الوقت حوالينا

لم يتمدد مثل الظل ؟ » .